مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 12 العدد: 04 السنة 2020 ص 380 - 396

تاريخ الإرسال: 2020/01/20 تاريخ القبول: 2020/08/28
تاريخ النشر: 2020/09/20

الخلفية المعرفية للمنهج التحليلي عند علماء البلاغة
Thecognitive background of the analytical method of rhethoric scholars

عثماني عمار
المركز الجامعي أحمد زبانة – غليزان، amar.othmani@cu-relizane.dz

الملخص:

يروم العمل بيان التلازم الحاصل بين المنهج العلمي ومقاصد العلم في تصنيفات علمائنا القدامى؛ ومن الأهمية بمكان أن يحمل هذا العمل أهمية في إعادة قراءة التراث البلاغي، تعرفا على المناهج أو الطرق التي سلكها البلاغيون في مناقشة المحاور البلاغية الكبرى، ومن ثمّ إنتاج علم أضحى يسمى اعتبار من تصنيف مفتاح العلوم للسكاكي بعلوم البلاغة. الأمر الذي دفعنا إلى محاورة قضية الإعجاز التي كتبها عنها العلماء كثيرا، لمعرفة طبيعة المنهج التحليلي، الذي كان أداتهم في ذكر تفاصيل القضية، والردّ على الخلافات الحاصلة في الموضوع.

وبناء على ذلك يأتي هذا العمل لإظهار تلك العلاقة بين المنهج التحليلي وقضية الإعجاز، وكيف حضر هذا المنهج في كتابات علماء الإعجاز، ابتداء من رسالة الرماني المشهورة وإلى أثري عبد القاهر الجرجاني، والبحث في حقيقة أمره يتوزع بين جوانب نظرية وأخرى تطبيقية. مما يدفعنا إلى الاعتماد على مكتبة تتصل أساسا بمصنفات البلاغيين في موضوع الإعجاز، ومراجع أخرى تتعلق بمناهج البحث العلمي، ومرتكزاته.

المنارة للاستشارات

الكلمات المفتاحية: المنهج– الإعجاز– التحليل– العقل– البلاغة

Abstract:

The work aims to explain the correlation between the scientific method and the purposes of science in the classifications of our ancient scholars. It is important that this work bear importance in re-reading the rhetorical heritage, in order to know the curricula or methods that the rhetoric took in discussing the major rhetorical axes, and then produce a sacred science called consideration from Classification of the science key for scaki-rhetoric. Which prompted us to discuss the issue of miracles, which scientists wrote about a lot, to know the nature of the analytical method, which was their tool in mentioning the details of the issue, and to respond to the differences in the subject.

Accordingly, the article comes to show that relationship between the analytical approach and the issue of miracles, and how this approach was attended in the writings of scholars of miracles, starting with the famous message of al-Romani and the archaeologist of Abd al-Qaher al-Jarjani. This leads us to rely on a library that relates mainly to the classifications of rhetoric in the matter of miracles, and other references related to the methodologies of scientific research, and its foundations

Keywords: Methods- methodologies- rhetorical -analytical

المؤلف المرسل: عثماني عمار، الإيميل: amar.othmani@cu-relizane.dz

1.مقدمة:

إنّ هذا البحث يحاول إلى التأكيد على وعي البلاغيين بنقل المعرفة البلاغية من طابعها الانطباعي إلى الطابع العقلي الذي ظهر في بيئة المتكلمين، والتشديد على أهمية ظهور المنهج التحليلي في كتاباتهم، وجدوى التلازم بين الإعجاز

المنارة للاستشارات

باعتباره مقصد من مقاصد البلاغة العربية و المنهج التحليلي الذي يعتمد على التفسير والنقد والاستنباط، وهي كلها عمليات ترتكز عليها الكتابة البلاغية.

البحث في الطريقة التي قدّم بها العلماء تفكيرهم أمر هامّ، تكمن فائدته في الإلمام بالكيفية التي تمّ بها إنتاج العلم، بدلا من الحرص على حفظ القواعد وتكرارها. ومن هذا لمنطلق تأتي فكرة الموضوع في محاولة فهم التراث البلاغي من زاوية الوقوف على منهج التأليف عند البلاغيين القدامى؛ لضبط العلاقة الجامعة بين منهج البحث البلاغي والدافع المعرفي الموصل إلى تبني منهجٍ دون غيره من المناهج العلمية.

إنّ إعادة قراءة البلاغة العربية من حيث الوقوف على مناهج البحث فيها، وما صورته مصنفات العلماء من الاهتمامات التي استدعت انتباه قلّة من الدارسين المحدثين، الذين أرادوا أن يحاوروا الموضوع من هذه الزاوية. غير أنّ الذي لم يأخذ حقّه من العناية العلاقة بين منهج البحث البلاغي والخلفية المعرفية، اللّهم عند نفر من الباحثين أمثال محمد عابد الجابري، وتمام حسان، وإسماعيل شكري، وعماد البخيتاوي؛ وهي البحوث لم تتلق الاهتمام من لدن القارئ العربي، فبقيت حبرا على الورق، ولم تنقل بالشكل المطلوب إلى المتعلم، ولم تأخذ كشرط جازم في قراءة التراث البلاغي.

إنّ منهج البحث البلاغي الذي نقصده في الدراسة الوقوف عند " الطريق المؤدي إلى الغرض المطلوب من خلال دراسة المصاعب والعقبات، ويعني الفكر العلمي المعاصر الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة"[1]؛ فالبلاغة كباقي العلوم الأخرى ينبغي أن نقف فيها عند الطريق الذي

المنارة للاستشارات

رسمه الأوائل بشأن التأسيس لعلم يسمى البلاغة، ويضمّ علوم ثلاثة فرعية، وهي: المعاني، والبيان، والبديع.

المعرفة بأنواعها المختلفة تحمل هدفا معينا، يسلك العلماء طريقا للوصول إليه، وفق " مجموعة منظمة من العمليات تسعى لبلوغ هدف "[2]. ومن ثمّ فإنّ المناطقة يسعون إلى الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها، ويمكن أن نصف عملهم بأنّه " فنّ التنظيم الصحيح لسلسلة الأفكار العديدة، إمّا من أجل الكشف عن حقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين "[3]

والتراث باعتباره معرفة ينهج لبنائه العلماء طرق مختلفة، تتماشى وسياق الحال وشروط الإنتاج؛ وعليه فإنّه يلزم علينا دراسة تلك المعرفة، بفحص أشكالها ومضامينها، وهو العمل الذي يطلق عليه بـ " علم المناهج"، ويعرفه بدوي عبد الرحمن بأنّه " العلم الباحث في الطرق المستخدمة في العلوم للوصول إلى الحقيقة"[4]، أي أنّه يحدّد الشكل العام لكل علم، والطريقة التي تكوّن بها. وهذا العمل يتطلب قراءة مستوعبة؛ لأنّ العلم جاء وفق منهج تأملي، أي أنّ إنتاج أيّ علم يأتي من التأمل والشعور، لا على التلقائية[5].

والغاية في ذلك لا تتوقف عند معرفة طرق التأليف، فالمنهج " في تصورنا لا يقتصر على طرائق العلماء في تأليف كتبهم، وتنظيم فصول أبوابها، كما لا يتحدد بالصبغة الغالبة على دراستهم أدبية كانت أو كلامية، وإنّما يتجاوزها إلى تدقيق مسالكهم في الاهتداء، إلى مواطن الجودة والقبح في الكلام، واستكناه المستندات النظرية، والمتطلبات المبدئية التي على أساسها واجهوا مسألة القيمة الفنية، وأخرجوا كبتهم بالصفة التي عليها"[6] .

2. قراءة التراث البلاغي:

المنارة للاستشارات

إنّ قراءة المصنفات البلاغية تستدعي الكشف عن مناهج العلماء فيها، ومعرفة " الصياغة الموضوعية النّاظمة لمجموعة المعارف والحقائق والتجارب والخبرات والمهارات، التي تهدف إلى تحقيق أغراض معينة محدّدة "[7]؛ وهذا العمل من شأنه أن يساعد القارئ على تفحص إنتاج العلماء من الداخل، ويقف عند مسالك صناعة العلم، وكيفية التشبث بالفكرة والدفاع عنها، برهانا وعرفانا.

وإذا كانت العلوم الإسلامية تتخذ منهاجا يعتمد على النّص الإلهي المقدس والهدي النبوي المعظم أساسا تدور حولهما كل القيم والمعارف فإنّ البلاغة العربية تتوزعها مرتكزات متعددة بين ما هو مقدس (الكتاب والسنة) من جهة، وبين الإنسان بإبداعه أساسا أيضا لمعارفها ومفاهيمها.

والبحث في مناهج العلماء إنّما هو البحث في وسائلهم؛ ذلك أنّ " العلوم تعد مقاصد في المسألة التعليمية، وأما المناهج فإنّها تعتبر وسائل توظف من أجل تحقيق المقاصد من العملية التعليمية وإيصالها إلى المتعلمين "[8].

لكن الذي ينبغي أن يكون ذا أهمية هو دراسة العلاقة بين الموضوع والمنهج، بغية الوقوف عند الخلفية المعرفية لمناهج البحث، وهو ما يعرف بالقراءة الإبستمولوجية، التي تعد مكسبا في الدراسات الحديثة، تهدف إلى فهم التراث، وتحليله، وتعليل بنائه.

إنّ القراءة الإبستمولوجية للتراث البلاغي محاولة للوقوف على النظرية المعرفية العلمية الذي أنتجت هذا التراث وفق صورته المتوارثة؛ ذلك أن الإبستمولوجيا في أصله اللغويّ تعني نظرية العلم، هدفها الدراسة النقد لمبادئ العلوم، تُحدد أصلها، وتقف عند قيمتها الموضوعية.

ومن ثمّ فإنّ الدراسة الإبستمولوجية هي دراسة لطبيعة المعرفة، من حيث مكوناتها، وشروطها ومصادرها وحدودها وآليات تسويغها، ولهذا يقول محمد عابد

المنارة للاستشارات

الجابري: " إنّ التحليل الإبستمولوجي يتناول الثقافة العالمة وحدها، بهدف الكشف عن الآليات والمفاهيم التي تعتمدها في إنتاج المعرفة ونقدها، أي الكشف عن جملة (قواعد اللعب) المستعملة في تلك الثقافة لإنتاج المعرفة"[9].

وقد سيطرت النزعة البنيوية على فكر المحدثين في قراءة التراث البلاغي، كما نجد ذلك عند محمد عابد الجابري، في دراسته الموسومة بـ " بنية العقل العربي"، فهو يرى أنّ البلاغة– وهي التي أطلق عليها مصطلح البيان كما كانت عند الأوائل (الشافعي، والجاحظ، وابن وهب)– " كنظام معرفي هو جملة من المبادئ والمفاهيم والإجراءات التي تعطي لعالم المعرفة ذاك بنيته اللاشعورية: أعني المحددات، والتسلطات التي تحكم وتوجه المتلقي للمعرفة المنتج لها داخل الحقل المعرفي البياني دون أن يشعر بها، دون أن يختارها "[10]. والجابري في ذلك أراد البحث عن تلك المبادئ والمفاهيم أو ما يمكن أن نطلق عليه بالمعرفة التي تقع خلف البحث البلاغي، انتهى إليها، وعدّها ثلاثة أزواج، وهي: اللفظ/ المعنى، الأصل/ الفرع، الجوهر العرض.

ويصل إلى أنّ مهمة تلك الأزواج تكمن في أنّ " الأول والثاني يحددان منطلقات التفكير ومنهجه، والثالث يؤسس الرؤية ويؤطرها "،ويشرح ذلك فيقول: " الأصول ثلاثة أصناف: صنف يؤسس المعرفة البيانية فهو منطلقها، وصنف يؤسس الاستدلال المنتج لها، وصنف يوجه التفكير حين عملية إنتاجها، وبعبارة أخرى أنّ المعرفة العقلية في الحقل البياني تقوم كلّها، إمّا انطلاقا من أصل، وإمّا انتهاء إلى أصل، وإمّا بتوجيه من أصل، وفي أغلب الأحيان تجتمع هذه الثلاثة في عملية بيانية استدلالية واحدة"[11].أما إسماعيل شكري فيرى أنّ نظام تشكل الوعي البلاغي عند العرب ينطلق من منظور ابستمولوجي، يتفاعل فيه المفهوم والمقصد، معالجا كما سماها ثلاثة عناوين كبرى، وهي: التدوين، والإعجاز القرآني، والقدم

المنارة للاستشارات

والحداثة.وقد فسر مقصدية الموضوعات الكبرى في البلاغة فيما بيانه: " فالبديع والبيان يضمران مقصدية الدفاع عن تيار القدم أو تيار الحداثة سواء أتعلق الأمر بشعر المولدين مقابل شعر القدماء، أم بالفلسفة والعقل في مقابل النقل (مثل الخطاب البلاغي عند السجلماسي) كما أنهما ارتبطا من جهة أخرى بصراع القوميات الطارئ في العالم الإسلامي الجديد، الذي تجسد في الدفاع عن اللسان العربي أمام التيارات الشعوبية(الجاحظ مثلا) أما زوج الفصاحة والبلاغة فقد انتظمته مقصدية أساسية هي مقصدية الدفاع عن الإعجاز القرآني، وقد صار من البدهي القول إنّ وراء هاته المقصديات مناخا ثقافيا– سياسيا تمثل في حركة التدوين التي وجهت إلى حدّ كبير مختلف المواقف إزاء مختلف الإشكالات "[12].

ويمكن أن نلخص مقاصد البحث البلاغي عند العرب من منظور إسماعيل شكري وفق الشكل الآتي:

- الدفاع عن القديم أمام الحديث.
- الدفاع عن اللسان العربي أمام التيارات الشعوبية.
- الدفاع عن الإعجاز القرآني.
- التدوين

وقد اختلف الباحثون في حصر مقاصد البلاغة العربية؛ إذ هناك من زاد عن تلك التحديدات وأضاف مقاصد جديدة وفق رؤيته، وتأثره بالاختلاف الحاصل في قضاياها، كما هو الحال عند عماد البخيتاوي، الذي أضاف إلى ذلك، مقاصد أخرى، من أهمها الأثر الأجنبي. وتحقق البحث عنده في تحديدها في قوله: " إنّ الأسس التي وجدت أنّها المحرك والمؤثر الرئيس في نشأة البحث البلاغي هي (المجاز، والبيان، واللفظ والمعنى ، والصراع بين القديم والحديث، والإعجاز القرآني،

المنارة للاستشارات

والأثر الأجنبي، ومقتضى الحال)، وكما هو واضح فتلك الأسس تتوزع بين ما هو (مفهوم فنيّ)، و(عامل تاريخي)، و(دافع عقائدي)، و (طريقة للاستدلال) "[13] .

ونحن بذلك سنختار مقصد واحدا من مقاصد البلاغة العربية، ونحاول إظهار المنهج الذي تبناه العلماء في معالجته، وبيان العلاقة بينهما من جهة أخرى، أي بين المنهج والمقصد.

3.« الإعجاز» والمنهج التحليلي:

يعدّ علي عشري الزايد من أهمّ الدارسين الذين حاولوا أن يعيدوا قراءة التراث البلاغي من زاوية " التأليف"، ويرى أن البلاغة العربية " على امتداد تاريخها الطويل مجموعة من مناهج البحث وطرق، أو لنقل من مناهج التأليف، فالحقيقة أن بعض المناهج لم يكن بكبير صلة إلى البحث العلمي بمعناه الدقيق، وإنّما كان مجرد أساليب في التأليف، وطرق في الكتابة البلاغية"[14]

ويكشف الباحث أنّ " مناهج البحث البلاغي بمعناها العلمي الدقيق لم تعرف إلا في المرحلة الثالثة، مرحلة استقرار البلاغة واستقلالها، حيث تقاسم المؤلفات البلاغية في هذه المرحلة منهجان متقابلان من مناهج البحث البلاغي، يبرز أولها في مؤلفات عبد القاهر الجرجاني ومن نهج نهجه بينما يتضح الثاني في مؤلفات السكاكي ومدرسته البلاغية"[15]

ورغم ما سيق في سياق هذا البحث من تصورات، يقرّ بعضهم أن البلاغة تقاسمها منهجان؛ منهج المدرسة الكلامية، ومنهج المدرسة الأدبية إلا أنّ الذي يستقر في الأذهان هو الأخذ بتصور علي الزايد، الذي قسم مناهج البحث البلاغي على النحو الآتي[16]:

- المنهج التجميعي: مثله بكتب الجاحظ، والمبرد، والشريف الرضي،...
- المنهج الانطباعي: مثله بكتب ابن المعتز، والآمدي، والقاضي الجرجاني.

المنارة للاستشارات

– المنهج التحليلي الفني: مثله بكتب عبد القاهر الجرجاني والزمخشري

– المنهج التقنيني المنطقي: مثله بكتب السكاكي ومدرسته البلاغية.

إنّ من أهمّ مقاصد البلاغة العربية، وقضاياها الكبرى، تلك القضية التي أسهمت في تدوين البلاغة العربية، بل إنّها الأساس في نشأة البحث البلاغي، ونموه،وتطوره على يد عبد القاهر الجرجاني، في كتابيه: " دلائل الإعجاز"، و " أسرار البلاغة"؛ وهي قضية الإعجاز، أو الدفاع عن الإعجاز القرآني، على حدّ تعبير إسماعيل شكري.

إنّ إعجاز القرآن " صفة منصوبة للدلالة على أنّ القرآن كلام الله سبحانه أنزله بعلمه بلسان عربي مبين فنزل به جبريل عليه السلام على قلب محمد صلى الله عليه وسلّم ليكون معجزته التي توجب من سمعها أن يشهد له بأنّه رسول الله أرسله إلى النّاس كافّة"[17].

تمثل دور البلاغيين في مناقشة قضية الإعجاز من خلال بيان وجه التحدي فيه، سواء كان ذلك تفاضلا بينه وبين الشعر، أم مناقشة حدّ الإعجاز فيه، في لفظه، أو معناه، أو نظمه، وقد اختلف البلاغيون في ذلك، على تعدد مذاهبهم، وطرقهم التي سلوكها في تعليل ذلك وتفسيره. ولهذا تقول عائشة بنت عبد الرحمن: " أنّ المصنفات الأولى في الإعجاز ، على اختلاف مذاهب أصحابها، جاءت أشبه بمباحث بلاغية، مما قدورا أنّ إعجاز القرآن يعرف بها، وإن استوعبت أقوال المتكلمين وجوه الإعجاز، فرسائل الخطابي السنيّ، والرماني المعتزليّ، والباقلاني الأشعريّ، تأخذ مكانها في المكتبة البلاغية، وبعد أن استقلت البلاغة بالتأليف والتصنيف، وجهت إلى خدمة الإعجاز البلاغي، فالجرجاني يضع كتابه في النظم والبلاغة "[18] .

المنارة للاستشارات

ولتحليل مظاهر البلاغة وآلياتها، كان على البلاغي " أن يعتمد القرآن كسلطة مرجعية لكونه يمثل نظمه وطرق تعبيره أعلى مراتب البيان العربي. ومن هنا اتجهت المناقشات الكلامية في موضوع اللفظ والمعنى اتجاها بلاغيا واتجهت المناقشات البلاغية في الموضوع نفسه اتجاها كلاميا، والنتيجة اصطباغ البحث البلاغي العربي بالصبغة الكلامية، وهو ما يسميه الباحثون المعاصرون المهتمون بالبلاغة العربية بـ « طغيان التحليل العقلي» "[19] .

إنّ المنهج التحليلي الأنسب في معالجة قضية الإعجاز، ذلك أنّ تلك القضية كانت الإشكال الرئيس التي دارت حولها مباحث البلاغة العربية، فكان على العلماء تبني مسلك التحليل في دراسة الإشكالية العلمية، من خلال ثلاث عمليات، وهي: التفسير والنقد والاستنباط؛ فالكتابات في موضوع الإعجاز كانت قضية جدلية تحتاج إلى تأويل النصوص، ورصد مواطن الخطأ والصواب في أبحاث المطروحة للجدل، ومن ثمّ الخروج بأحكام جديدة، بين شيوخ السنة والمعتزلة والأشاعرة. وهي أحكام اعتمدت على الاستنباط التي توسلها إليه البلاغيون من علوم أخرى كالتفسير وعلوم القرآن وأصول الفقه، وهو ما أضفى على إنتاجهم صبغة التحليل والمناقشة.

ويكون التحليل منهجا عندما ينطلق العمل فيه من أسس معرفية، وتكون الغاية في تبني هذا المنهج دون غيره ضرورة ملحة، يتعاطى معها العالِم لتحقيق الإقناع بما يراوده من أفكار وآراء حول المعرفة التي يحملها؛ ولهذا فهو أنضج مناهج التأليف البلاغي، وتكمن خصوصيته في " الامتزاج بين القاعدة والتذوق الفني، وتحدث المزاوجة بين النظرية والتطبيق فلا يطغى الجانب الذوقي التأثري على الجانب النظري(...) وإنّما تتآزر القاعدة والتحليل الفني تآزرا كاملا يصبح في إطار التحليل الفني للنص هو السبيل إلى استخلاص القاعدة وتقريرها، ولا تفرض القاعدة

المنارة للاستشارات

ابتداء ثم يبحث بعد ذلك عن النص (الشاهد) عليها، فالنص هو مصدر القاعدة ومنبع النظرية، والقاعدة في خدمة النص وإضاءة جوانبه إضاءة فنية "[20]

المؤلفات البلاغية التي تبنى أصحابها المنهج التحليلي كثيرة هي، ولعل القاسم المشترك بينها أنّ حاولت جميعها معاينة فكرة (التحديّ)، و إظهار أسرار الإعجاز في القرآن الكريم؛ والمطّلع على تاريخ البلاغة، والقارئ في نصوصها أنّ تبني المنهج التحليلي في معالجة المادة البلاغية هو وسيلة أو أداة حجاجية؛ لإظهار قوّة آرائهم، فالظاهر أنّ علماء البلاغة كانوا في مهمة البحث عن الدليل، فاستخدموا التحليل بوصفه وسيلة استنباط ودحض آراء خصومهم.

إنّ هذه الأطروحة التي ساقها المؤلفون في البحث البلاغي مشروعة؛ ولعل من أهمّ العلماء الذين استخدموا المنهج التحليلي هم علماء الإعجاز: الخطابي، والرماني، وعبد القاهر الجرجاني، فقد ظهر جدوى التحليل عند الخطابي في الردّ على مطاعن التي وجهت للنص القرآني؛ إذ أُشكل عليهم قوله تعالى: " فأكله الذئب " ورأوا بأنّ الفصيح استخدام الفعل (افترس) بدلا من (أكل)؛ ولهذا كان على الخطابي الاستنجاد بالتحليل كآلية أو منهج لبيان غلطهم، وإظهار قوّة الحقيقة التي يمتلكها، فقال: " إنّ الافتراس معناه في فعل السبع القتل حسب، وأصل الفرس دق العنق، والقوم إنّما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلا وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلا ولا عظما، وذلك أنّهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يعبر إلا بالأكل..."[21]

كما نجد ملامح هذا المنهج في رسالة الرماني المشهورة، وهي الموضوعة أصلا في بيان إعجاز القرآن، والجواب عن من أراد نكت إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، فهو مثلا في بيان مراتب التشبيه ينهج التحليل لتوضيح مراده، فيقول: "

المنارة للاستشارات

والأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه به على وجوه: منها إخراج على ما لا تقع عليه الحاسة، ومنها إخراج ما لم تجربه عادة إلى ما جرت به عادة، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، ومنها إخراج ما لا له قوة في الصفة إلى ما له قوة في الصفة، فالأول نحو تشبيه المعدوم بالغائب والثاني تشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم، والثالث تشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب والرابع تشبيه ضياء السراج بضياء النهار "[22]

إنّ بيان فكرة التحدي والفارق بين التعبير القرآني وغيره أوزعت للعلماء تصنيف كتبهم، والكشف عن فكرة الإعجاز؛ ولهذا نجد عالما مثل الباقلاني يعقد مقارنة بين القرآن والشعر، فكان التحليل الأداة التي خدمت موضوعه، فتراه يعلّق على قصيدة امرئ القيس (قفا نبك) ليكشف عجز صاحبها، ومن جهة أخرى يبيّن تفوق القرآن الكريم، ردّا على الذين تعصبوا لشعر امرئ القيس، خاصة في مطلعها، يقول فيما بيانه: " تأمل – أرشدك الله– وانظر هداك الله: أنت تعلم أنّه ليس في البيتين شيئ قد سبق في ميدانه شاعرا، ولا تقدم به صانعا وفي لفظه ومعناه خلل. فأول ذلك: أنّه استوقف من يبكي لذكر الحبيب، وذكراه لا يقتضي بكاء الخليّ، وإنّما يصح طلب الإسعاد في مثل هذا على أن يبكي لبكائه، ويرق لصديقه في شدة برحائه (...) ثم إنّ في البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع، وتسمية هذه الأماكن من (الدّخول) و (حَومَل) وتوضيح والمقراة، و (سقط اللّوى). وقد كان يكفيه أن يذكر في التعريف بعض هذا. وهذا التطويل إذا لم يفد، كان ضربا من العيِّ"[23]

وهذا النّص فيه دلالة واضحة على تبني النهج التحليلي عند الباقلاني في إظهار عيوب قصيدة امرئ القيس، وموازنتها بالقرآن الكريم، والغاية في ذلك إثبات إعجاز القرآن، ونفي الشعر والسجع عنه. وبهذا الأسلوب يتمكن الباقلاني من إسكات

المنارة للاستشارات

تلك الأصوات التي تدعي لنفسها الحقّ في مناقشة معجزة القرآن دون دراية بالفارق الكبير بين النظم القرآني وأروع بلاغة العربي في أرقى ما تمثله القصيدة الجاهلية، وهي قصائد المعلقات.

والملاحظ أنّ المنهج التحليلي يتطلب قدرة كبيرة على تحديد الزوايا المثارة للجدل والمناقشة، وأنّه منهج تطوّر وتمتع بخصائص جديدة على يدّ عبد القاهر الجرجاني؛ ولهذا كانت مؤلفاته (الأسرار والدلائل) تمثل مرحلة نضج التفكير البلاغي عند العرب، وعليه كان النهج التحليلي عنده يمتاز بالعمق، ولهذا يقول بدوي طبانة: " ويمكن اعتبار عصر عبد القاهر مرحلة النضج والرشد الفكري في تلك الحياة، فالذوق العربي قد جارى سنة الطبيعة فترقى من طور البساطة، بما جدّ عليه من عوامل الرقي الاجتماعي والفكري"[24]، ثمّ إنّ ذلك التذوق الذي يميز عصر عبد القاهر كان عليه أنّ يكون معللا، فتحوّل " من الانفعال والاستحسان إلى مراتب التذوق المنظم، القائم على تعرف علل التأثر وأسبابه "[25]، ومن ثمّ يكون التحليل ضرورة ملحة لا يمكن الاستغناء عنه.

إنّ تبني المنهج التحليلي واضح في كتابات عبد القاهر الجرجاني، بدء من تحرير الشافية إلى كتابة دلائل الإعجاز، مرورا بأسرار البلاغة، والدلائل آخر ما وصلنا من هذا الرجل، وأنّ مسألة إعجاز القرآن هي بيت قصيده فيما كتب، قام فيه الإجراء على التحليل المتميز بالفحص الدقيق والتغلغل النافذ إلى بواطن الأمور[26].

ومن أمثلته التي ينهج فيها التحليل؛ بيان بلاغة الكناية عن الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأنّ للاستعارة مزية وفضلا، وأنّ المجاز أبلغ من الحقيقة، يقول فيما بيانه: " اعلم أنّ سبيلك أولا أن تعلم أن ليست المزية– التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدّعي لها– في أنفس المعاني التي يقصدها المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها.

المنارة للاستشارات

تفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا: (إنّ الكناية أبلغ من التصريح) أنّك لما كنيت عن المعنى وزدت في ذاته، بل المعنى أنّك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وأكد وأشد. فليس المزية في قولهم: (جم الرماد)، أنّه دلّ على قري أكثر، بل أنّك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ، وأوجبته إيجابا هو أشد، وأدعيته دعوى أنت بها أنطق، وبصحتها أوثق "[27]، وواصل تحليلاته في بيان مزية الاستعارة، والمجاز، والتعريض.

والملاحظ في النماذج التي قدمناها أنّ المنهج التحليلي تطورت مقوماته وأساسه من نشأته على يد الرماني في رسالته المشهورة إلى عبد القاهر الجرجاني في أثريه، وبذلك فالمعرفة تتحول منن حالة انطباعية إلى حالة عقلية، واستخدام العقل في التحليل البلاغي يبرره طبيعة الموضوع المثار للجدل بين العلماء؛ ولذا كان العقل أكثر التصاقا باللغة عند القاضي عبد الجبار.

إنّ المتأمل في سيرورة البحث البلاغي عند العرب يرى أنّ المنهج التحليلي اعتمد عليه العلماء في معالجتهم لقضية " الإعجاز"، ولقد أسهم هذا الموضوع في ظهور مصنفات متعددة، تظهر الخلافات بين العلماء، في أصول الظاهرة الإعجازية، أو فروعها، فقد انبرى علماء الإعجاز لبيان أنّ القرآن معجز بنظمه وبلاغته.

والتحليل بوصفه منهجا وآلية تبناه العلماء؛ لأنّهم كانوا يعيشون مرحلة الجدل؛ للردّ على الطاعنين في كتاب الله، وقد ابتدأ ذلك منذ عصر ابن قتيبة، الذي فتح الباب في بيان مزية كلام الله عن كلام البشر، فكان البلاغيون مضطرين للتوسل إلى وسائل الشرح والاستنباط بغية بيان هذا المفهوم البلاغي الذي يتمتع به القرآن.

ومن ثمّ لا ضير في استخدام المنهج التحليلي في عرض المادة البلاغية، التي كان يقوم جوهرها على عرض الردود على من خالف العلماء في بعض الأقوال

المنارة للاستشارات

المتعلقة بإعجاز القرآن؛ وحتى إنّ الخلاف لم يكن ردّا على الطاعنين في القرآن، بل إنّ ذلك الخلاف كان بين علماء الإعجاز أنفسهم، في بيان وجوه بلاغة القرآن، ومراتبها، ومردّ الإعجاز إلى اللفظ أم المعنى، أم إلى النظم، وغيرها من قضايا الخلاف التي استظهرت هذا المنهج، خاصة وأنّ قضية الإعجاز هي قضية لغوية بالدرجة الأولى، وأنّ اللغة مسألة عقلية، فلا شكّ أنّ ذلك يستدعي التحليل والاستنباط، ومحاولة الكشف عن الأسرار؛ ولذلك رأيناهم ينطلقون من تحليل جزئيات النص للوصول إلى كليته، خاصة في مقام الردّ عن من أعاب بعض الإسنادات في القرآن، على شاكلة إسناد الأكل للذئب، وتوصيف العسل بالشراب.

وبناء على ذلك يكون موضوع الإعجاز في القرآن أساسا معرفيا لتبني المنهج التحليلي في البحث البلاغي، أو بعبارة أخرى يمكن القول إنّ الدافع وراء الاعتماد على التحليل في عرض الموضوعات البلاغية يعود إلى قضية المناقشة المتعلقة بإعجاز القرآن. التي تطلبت حضور ثلاث عمليات التفسير والنقد والاستنباط، وهو ما لاحظناه في نصوص علماء الإعجاز، وهي عمليات من مقومات المنهج التحليلي، وعليه فلا عجب في قيام هذا المنهج في تلك الدراسات؛ لأنّ ذكاء البلاغي كان واضحا في تبني هذا المنهج دون غيره؛ بل إنّ ذلك التوسل بالمنهج التحليلي كان مفروضا لحمل فكرة إعجاز القرآن. ومن ثمّ يلتحم المنهج بموضوعه.

4.خاتمة: من النتائج التي توصل إليها البحث:

– إنّ علماء البلاغة كانوا واعين بما يكتبون، وعارفين بالطرق التي تكشف لهم حقيقة ما يبحثون.

– عرف البحث البلاغي عند العرب مناهج مختلفة، نشأت في أحضان تلك المعرفة، وتطورت بتطورها (من المنهج الانطباعي إلى المنهج التقنيني).

المنارة للاستشارات

– إنّ تعدد مقاصد البلاغة العربية هي التي دفعت إلى وجود أكثر من منهاج في البحث عند علمائها.

– الملاحظ أنّ تعدد مناهج البحث عندهم كان بسبب الخلفية المعرفية التي تلائم كل منهج.

– إنّ ظهور المنهج التحليلي في البحث البلاغي عند العربي راجع إلى طبيعة المنهج الذي يعتمد على آليات التفسير والنقد والاستنباط الملائمة للقضايا البلاغية التي كثر فيها الجدل على غرار قضيتي اللفظ والمعنى والإعجاز.

المراجع:

[1] بوحوش عمار ومحمد محمود الذنيبات: مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص102.

[2] موريس أنجرس: منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية (تدريبات عملية)، ترجمة سبعون وآخرون، دار القصبة للنشر،الجزائر، 2004، ص 98 .

[3] عمار بوحوش ومحمد محمود الذنيبات: المرجع السابق، ص 103 .

[4] بدوي، عبد الرحمن : مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط3، 1977، ص 07 .

[5] المرجع نفسه، ص 06 .

[6] حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط3، 2010 ص 480.

[7] سيانو،قطب مصطفى: مناهج العلوم الإسلامية والمتغيرات العالمية، سلسلة كتاب الأمة، العدد160، 1435هـ، ص 50.

[8] المرجع نفسه، ص 60.

[9] الجابري، محمد عابد: بنية العقل العربي (دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط9، 2009، ص 556.

[10] محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 556.

[11] المرجع نفسه، ص 113.

المنارة للاستشارات

[12] شكري، إسماعيل: في نقد الصورة البلاغية (مقاربة تشيدية)، مجلة ، العدد3، المجلد 37، 2009، ص 158 .

[13] البخيتاوي عماد محمود: مناهج البحث البلاغي عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 2013 ص 36 .

[14] الزايد، علي عشري: البلاغة العربية (تاريخها . مصادرها. مناهجها)، مكتبة الآداب، القاهرة، 2009، ص 109.

[15] المرجع نفسه، ص 109 .

[16] نفسه، ص 110 .

[17] شاكر، محمود محمد: مداخل إعجاز القرآن، دار المدني، جده، السعودية، ص 15 .

[18] عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف، القاهرة،ط3، 1971، ص94

[19] محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 76 و77.

[20] علي عشري الزايد،المرجع السابق، ص 125.

[21] الخطابي: بيان إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلاّم،ط2، القاهرة، 1968، ص 41 .

[22] الرماني: النكت في إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط2، القاهرة، 1968، ص 71.

[23] الباقلاني: إعجاز القرآن، تحقيق أبو بكر عبد الرازق، مصر، 1994، ص 186 .

[24] بدوي، طبانة: البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب، دار الثقافة، لبنان،ط1986،5، ص158 .

[25] المرجع نفسه، ص 161 .

[26] محمد بركات حمدي أبو علي: معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، الأردن ، ط1، 1984، ص 76 .

[27] الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، دار المدني، جده، ص 54.

المنارة للاستشارات